قصة وارث

لجوزيف اديسن

[ولد جوزيف اديسن سنة ١٦٧٢ في ولتشير ، في جنوب انكلترة الغربي ، من ابوين اشتهرا بالفضل والعلم والادب ، وتخرّج في جامعة اكسفورد . وفي صباهُ زاول نظم الشعر في اللغة اللاتينية فاجادهُ . وسنة ١٦٩٩ ساح في اوربا وزار كثيرين من ملوكها وامرائها وباحثهم في الشؤون السياسية ، توطئة للانتظام في سلك رجال السياسة بعد رجوعهِ الى بلادهِ . ولكنهُ عرض لهُ بعد موت الملك وليم سنة ١٧٠٢ ما ثناهُ عن عزمهِ . فطلّق السياسة ومال الى الادب فجلّى في مضمارهِ ومن ذلك قصيدتهُ البليغة التي نظمها تنويهاً بانتصار دوق مارلبرو في موقعة بلنهيم بعنوان « المعركة » . وفي سنة ١٧٠٩ شارك صديقهُ رتشرد ستيل في إصدار مجلة « تتلر » ثم « مجلة سبكتاتر » وفي كليهما نشر من المقالات والمباحث والقصص ما دلّ على رسوخ قدميهِ وعلوّ كعبهِ في صناعة البراعة

القصة

خرجتُ امس انتزّه في ضواحي المدينة ومعي صديقي السر رودجر . فمرّ بنا شابٌّ جميل الطلعة حسن البزّة يتخطى جواداً كريماً ووراءهُ اثنان من الخدم . ولما سألتُ السر رودجر عنهُ قال لي : « انهُ صاحب ضيعة كبيرة وقد ربّتهُ امٌّ رؤوم حنون كانت على جانب عظيم من التقوى والصلاح ولكنها لم ترزق نصيباً كبيراً من الرزانة وبعد النظر وقوّة الارادة ككثير من الامهات . فخالفت في تنشئة ابنها أحكام عقلها وجرت على مقتضيات عواطف قلبها . ووجهت معظم اهتمامها نحو تفتيقهِ وترفيههِ والعناية بصحتهِ الجسدية . فشبَّ صحيح الجسم وجميل الصورة كما رأيتهُ ولكنهُ غير مستوفر قسطهُ من الفطنة والذكاء ويوشك ان يكون عاطلاً من حلية العلم والادب . لم تلحّ عليهِ في المطالعة مخافة ان تصاب عيناهُ بالرمد . وتراخت في حثّهِ على الكتابة لئلا يشكو صداعاً . ولما جاوز سنّ المراهقة واصبح قديراً ان يتخطى صهوة الجواد او يحمل البندقية القت حبلهُ على غاربهِ وتركتهُ يقضي ايامهُ في ركوب الخيل والصيد والقنص »

ومما قالهُ لي صديقي علمتُ ان هذا الشابّ متمتّع بأكمل صحة . فهو غنيّ جدًّا من

هذه الجهة فقط وافتر الفقراء من الجهات الاخرى . ولو اقتصر غرض الانسان في هذه الحياة الدنيا على ان يعيش — ان يأكل ويشرب وينام — لكان هذا الفتى اسعد الناس حظاً واسبقهم الى الحصول على الغرض المقصود

ومنذ اقدمي في هذه الانحاء طرق سمعي واستوقف نظري ما لا يحصى من الحوادث المتعلقة بالوارثين امثال هذا الشاب الذين لم يكونوا يصلحون لشيء سوى ان يبذروا ما تركهُ لهم آباؤهم على أشهى المآكل واغلى الملابس واخر الرياش واتم القصور وغير ذلك من ضروب التنعم والترفه ووجوه السرف والتبذير . ولم يُمنَوا قطُّ بما يثقف اذهانهم ويروض افكارهم ويهذب نفوسهم ويكسبهم طيب الذكر وحسن الاحدوثة . فعاشوا غير منظورين بعين الاحترام اليهم وماتوا غير مأسوف من احد عليهم . وهذا يخطر ببالي قصة سمعتها عن صديقين خالفا في معيشتهما هذا المسلك الذميم . أرويها في ما يلي كائناً عن القارئ اسميهما الحقيقيين لان في مغزاها عظة بالغة وعبرة مفيدة لمن شاء الاتعاظ والاعتبار

تعارف رتشرد وليوتين وتآلفا منذ الحداثة . وكانا كلاهما عنوان حسن السلوك ومثال الجد والاجتهاد . فطلبا العلم في مدرسة واحدة ووثقا بينهما صداقة ظلت محكمة الى آخر حياتهما . ولما فرغا من تحصيل العلم عزم رتشرد ان يقتفي في عمله آثار رجال القضاء فتعين في محكمة كاتباً بسيطاً . وبواسطة مواهبه الطبيعية ومعارفه الاكتسابية اخذ في العروج والارتقاء حتى بلغ في وقت قصير منصباً رفيعاً وصار ربَّ ثروة كبيرة . اما ليوتين فانتهز كل فرصة سنحت لهُ لإثارة ذهنه بالمطالعة والمحادثة والسفر حتى ألمَّ بجميع العلوم واتصل بمعرفة اكبر جهابذتها في اوربا . وعاشر الكبراء وجالس الامراء وأحاط علماً باخلاقهم وعاداتهم . فقلَّ ان يرد ذكر واحد منهم لم يعرفهُ او لم يرهُ . وبالاختصار اقول ان نطاق معرفته العلمية والاجتماعية اتسع اتساعاً عظيماً حتى صار من اشهر رجال عصره . وفي أثناء اشتغاله بالدروس والاسفار كان يواصل صديقهُ رتشرد بكُتبه ويطلعهُ على خلاصة انباء عظماء اوربا وامرائها وبهذه الانباء كان رتشرد يتذرع الى الحصول على ما شاء من زيادة الحظوة عند كبار رجال القضاء

ولما قطع هذان الصديقان مرحلة الشباب واشرفا على الكهولة عملا بما كانا قد اتفقا عليه في ايام الصبا فاعتزلا العمل وسكنا المدن واعتزما ان يقضيا بقية ايامهما في الريف . فتزوج واشترى ليوتين ، بما كان عندهُ وعند زوجته من المال ، عقاراً تبلغ قيمة غلته في السنة ثلثمئة جنيه . وفي جوار ابتاع رتشرد ضيعة يزيد ريعها السنوي على ثلثة آلاف جنيه . وصارا كلاهما ابوين في وقت واحد تقريباً . فرزق رتشرد ابناً وليوتين بنتاً . ولكنهُ

فجع بوفاة زوجته — بعد ولادتها بضعة ايام. فانقضَّت عليه هذه الرزية انقضاض الصاعقة. ولكن صديقهُ الحميم رتشرد كان يزوره كل يوم ويبذل جهده في مؤاساته وتخفيف لوعته

وحدث ذات يوم انهما اجتمعا حسب عادتهما وطفقا يتحدثان في شؤونهما . فأشار ليوتين الى ما يقاسيهِ من الصعوبة في تربية ابنته وتعليمها كما يجب في بيته . واطلعهُ رتشرد على ما يوجسهُ من الخوف على مصير ابنهِ بعد ما يبلغ اشدَّهُ ويعلم انهُ الوارث الوحيد لثروة ابيهِ العظيمة فيشبُّ على البطالة والكسل وحبّ التبذير . وبعد الاستشارة في هذا الموضوع اتفق على مبادلة الولدين اي ان يربو النصبي مع ليوتين كأنهُ ابنهُ وتقيم البنت عند رتشرد كابنته حتى يبلغا رشدهما . اما زوجة رتشرد ، فنظرها أنهُ من مصلحة ابنها وفائدته أن يوكل امر تنشئتهِ وتربيتهِ الى ليوتين، وانها في الوقت نفسهِ ستكون دائماً قريبة منهُ ، رضيت بما اتفق زوجها وصديقها عليهِ ولم تبدِ اقلَّ ممانعة . وما ابطأت ان اخذت البنت ليوتين وعكفت على تعليمها وتهذيبها كأنها ابنتها . ولم يألُ الصديقان جهداً في التوفر على تربية هذين الولدين وشمولها بالعطف الابويّ والمحبة الوالديَّة حتى شعر كلٌّ منهما نحو مربيهِ بما يشعر بهِ الولد نحو ابيهِ الحقيقي. وتدرب فلوربو — ابن رتشرد — منذ طفولتهِ على ان ينظر بعين المسرة والابتهاج الى رتشرد الذي كان يزور صديقهُ من وقت الى آخر وتدرَّب هو ايضاً بالميل الطبيعيّ وسنَّة الحكمة على اكتساب محبة فلوربو واحترامهِ . ولما جاوز هذا الصبي طور الحداثة وعرف حالة الرجل الذي يظنهُ أباه رأى انهُ يجب عليهِ ان يحكَّ جلدهُ بظفرهِ ويبني يده صرح المستقبل الذي تطمح نفسهُ منذ الآن اليهِ . وهذا الفكر أخذ يتأصل في ذهنهِ ويزداد رسوخاً وتمكيناً حتى غا وأزهر وجاء باطيب الثمار . وشرع يعير نصائح ليوتين واشاراته أذنا صاغية ويبذل جهده في العمل بموجبها . وكان مفطوراً على الحصافة والذكاء وصحة الاستدلال وتوقد الذهن وسرعة الخاطر وقوة الملاحظة والحفظ . وهذه المواهب الطبيعية تمهدها مرشده الحكيم (ليوتين) بما أزكى غرسها ووسع مجال ظهورها ومكن صاحبها من ادراك نجاح سريع باهر في جميع العلوم التي عني بتحصيلها . وقبلما بلغ العشرين كان قد اكمل درسهُ في الجامعة ونال كثيراً من شهادات الامتياز بعدة علوم ولا سيما علم الحقوق الذي احرز فيهِ شهرة كبيرة ومقاماً رفيعاً

وقبل دخولهِ الجامعة وفي اثناء العطلات المدرسية كان يكثر التردد الى بيت رتشرد حيث يلقى ما شاء من الحفاوة والاعزاز . وهناك شبَّ على معاشرة ليونيل . ومعرفتهُ لها تحولت على مرّ الايام الى حلاوة الفة فمحبة . ولما كان من نجبة الشبان الذين غذيت